أخذني إلى النّهر. . . علقت السّمكة بشصّي. صحتُ ثم صحتُ. أقبل أبي يرشدني حتّى أخرجتها. تأمّلها، طلب منّي أن أبقيها في الماء وهو يقول: «نحن أربعة، هل تكفينا هذه السّمكة للغداء؟».

ـ قلت: تكفينا أيّاماً.

ـ هل تستطيع أن تصطاد أصغر منها؟

ـ طبعاً.

ـ انظرْ إلى هذه القرية، فيها عائلات أكثر أنفساً منّا. اتركْها لواحدةٍ منها واصطدْ سمكةً تكفي أربعة أشخاص.

فهمتُ الحكمة، أوّلَ حكمة، استسلمت. استلّ أبي بيده الحكيمة الزهوَ من صدري والشّصّ من فم السّمكة الكبيرة التي لم تستسلم.

ثمّ خبا شعاعُ عينيه، والنّادل بأدواته العازلة والقاطعة يقطع السّمكةَ بحكمةٍ مدروسة تحفّ به نظراتُ الإعجاب من الفارس وأميرته. فتجمّع الحديث في صدر «الڤيتنامي» يكاد يكون زمجرة: «أهذه هي العائلة الّتي تركنا السّمكة من أجلها يا أبي؟» لكن دويّاً مرعباً طغى على صوته. فنظر إلى السّماء، فإذا الشُّهُبُ الاصطناعيّةُ تتناثر مخلّفةً دويّاً تجاوز ما تعوّدته الآذان، فهاجت الجموع في السّاحة وماجت، وألفى البعضُ نفسَه في حضن البعض من الفزع، وألفى «الڤيتنامي» يده بوردها على كتف بلا ذراع بلا ساعد! فاندفعتْ بواطنُهُ وأعضاؤه نحو الحشود اندفاعاً جارفاً، يسمع صوت «بابا» أو «ماما» فتنقدح في ذهنه بلدتُهُ ببيوتها وغابتها ونهرها تحت سماء راعدة تمطر بالشّواظ والحديد، تقتلع الجذورَ، تُحرق الجذوعَ والجسوم، تُبعثر الأعضاءَ، تنضب المياهَ الدّافقة. . واستشعر بعضَ الدفء في أصواتِ النّاس وضحكاتهم، بعد إذ تعوّدت آذانُهم الدّويَّ حتّى خفَّ ليرتفع دويُّ الموسيقى، فتهاوى على مقعد اسمنتي قبالةَ البحر يهامسه، في يده الوحيدة وردٌ بنفسجي، وفي مجاري ذاكرته المنسابة حكمة بزعانفها تسبح!

سيدي يحيى الغرب
(المغرب)

صومعة الضّباب

حسّان يوسف مُحمّد

قلت له منذ زمن بعيد: «أنت مشروع مجنون». توقّعت أنْ ينتفض، لكن كلّ ما فعله أنْ ابتسم ببلاهة وعلّق ضاحكاً: «بل إنّني مشروع مُنجز. .».

والآن فإنّ قناعتي قد ازدادت بأنّ ما بقي في رأسه من حكمةِ تلك الأيّام قد طار إلىٰ غير رجعة. .

انشغلتُ عنه عشرة أيّام دون أنْ أراه. . لعلّه مات؟

إنّ أحداً لا يطرق بابه، وهو في صومعته يتابع انقطاعه عن العالم، ويصرّ أنّ روحه تقترب بهذا الانقطاع من الخالق.

«لماذا أخرجُ، إذا كان كبيرُ فلاسفتكم سارتر قد توصّل إلىٰ أنّ الجحيم هو الآخرون»؟

يتحكّم بي بشواهده ممّا يقرأه. إنّ تواصله مع العالم ينحصر في الكتب. فهو يقرأ كالجرذان. يلتهم كتباً لا تعدّ ولا تُحصىٰ.

أحاربه بأسلوبه، أدفع له كتباً تعارض آراءه، تُحرّض علىٰ العيش في قلب الحياة إلىٰ جانب البشر. ولكن. . لعلّه مات؟

أنا صديقه الوحيد لكنّه لا يعترف بصداقتي، يقول إنّه صديق الكتب فحسب، وأمّا أنا. . فمجرّد متطفّل. .

لكنّ الكتب لن تستطيع الصّراخ إذا توقّف نبضُ قلبه. . ولنْ تذرفَ دمعةً واحدة عليه.

ـ ستصبح جيفةً، تفوح رائحتها علىٰ البلدة، حين نكتشف موتك.

ـ لكنّ جثّتي بلا رائحة، فأنا لمْ أتمرّغْ بعالمكم.

أَدْفَعُهُ لقراءة تجربة كازانتزاكي مع الأديرة والرّهبنة، في صحراء سيناء وجبلها وديرها. . حديثه مع الأب جواكيم. كلمات الأب:

ـ إنّني أشفق علىٰ خديْكَ اللّذين مازال الرّغبُ يغطّيهما، وعلىٰ شفتيك اللّتين لم تشبعا من القُبل أو من الكفر، وعلى روحك البريئة الّتي تندفع نحو الهلاك لكنّني لنْ أتركك. إنّك علىٰ حافة الهاوية ولن أتركك تسقط

ـ أيّة هاوية؟

ـ هاوية الله أعرف أنّ رغبة الإنسان السّامية هي في القداسة هذا جميل، لكن علينا أولاً تجاوز الرّغبات الأقلّ سموًّا، يجب أنْ نتعلّم احتقارَ اللّحم والتعطّش للسّلطة والذّهب والعصيان.

ما أعنيه هو أنْ نعيش شبابنا وكلَّ عواطفنا البشريّة كاملةً.

يجب أنْ نُفرغ هذه الأصنامَ من محتوياتها عند ذلك نقدّم أنفسنا أمام الله.

ـ لا أستطيع التوقّفَ عن الصّراع مع الله؛ سأظلّ أتصارع معه حتّى اللّحظة الأخيرة الّتي أقدّم نفسي فيها أمامه.

ـ لا تتوقّف عن الصّراع مع الله. لكن إنْ كنت ترغب في التّغلّب

على الغواية فهناك طريقة واحدة فقط عانقْها، تذوَّقْها، وتعلّمْ كيف تحتقرها عندها تعجز عن إغوائك مرّة أخرىٰ. كلّ من يقتلع غرائزه يقتلع قوّته. ومع الزّمن والشّبع والمبدأ يمكن أنْ تتحوّل هذه المادّة المظلمة إلى روح

وعاد كازانتزاكي إلى كريت وهو يردّد: كان الأبّ جواكيم على حق. العالم هو ديرنا. الرّاهب الحقيقي هو ذاك الّذي يعيش مع البشر ويعمل هنا مع الله ملتصقاً بالتّراب. فالله ليس جالساً على عرش فوق الغيوم. إنّه يصارع هنا علىٰ الأرض إلى جانبنا. لمْ تَعُدِ العزلةُ طريقَ الإنسان المكافح.

كنت أدفعه لقراءة ذلك الجزء من حياة كازانتزاكي، ليخرج من قوقعته. ففاجأني بنتيجة عكسيّة. قال انظرْ ماذا يقول صاحبك، وأشار إلىٰ جملة وضع تحتها خطّاً أحمر: «**العزلة ضروريّة لأيّة روح تفشل في أنْ تحترق بعاطفة عظيمة**».

قرأتها بصوتٍ عالٍ، نظر نحوي بشماتة ثمّ تفوّه بهدوء:

ـ إنّ روحي غير قابلةٍ للاحتراق بأيّة عاطفة. لذا اخترت الطّريق إلى الله، عبر عزلتي وكتبي. ومثل عصفور منفرد سأبقىٰ حتّى أحظى بوحدة الخالق.

ـ وما أدراك أنّها الطّريق الصّحيحة؟

ـ أشعر أنّها طريقي، وصحّتها لا تهمّني.

***

لعلّه مات؟ لكن هل هو حيّ حقّاً؟

لعلّه مات.. هاجسٌ يلحّ عليّ.. في الصّباح أمرّ لزيارته. لقد تجاوزت السّاعةُ الثّانيةَ ليلاً. الثّلج والضّباب في الشّوارع يمنعاني من المبادرة الآن.

* * *

استيقظتُ وصورتُه داخل عيني.. حزمتُ جسدي بالثّياب الصّوفيّة كمدفأة. فتحتُ الباب، ورسمتُ خطوةً أولىٰ وسط الثّلج في الطّريق إلىٰ الصومعة. لايزال الضّباب يتكاثف إلىٰ المزيد.

سيفاجأ بطرقاتي. هذا الزّائر الصّباحي الّذي هو أنا، كَمْ سيزعجه!

ولكن لعلّه مات؟

أخطأتُ الاتّجاه.. اختصرتُ الطّريق.. عاندتُ العاصفة.. تابعتُ بصعوبة وأنا أهجسُ بالخوف من أنْ أتجمّد وأستحيل إلى قطعة من جليد.

ميّزتُ وأنا على بعد مترٍ واحد أنّ الباب مفتوح، وكذا كلّ النوافذ والضّباب في الدّاخل كالخارج تماماً!

ما الّذي أيقظه في هذا الصّباح الباكر الجليدي؟ لماذا يفتح كلّ المنافذ للبرد والضّباب!؟

لعلّه أحسّ بالموت قبل أن تقتربَ نهايته، ففتح الباب ليتيسّر لنا الوصول إلى جثّته دون تعب؟

لعلّه الآن يرقد ميّتاً، ملتصقاً بعزلته وإلٰهه؟

قبل أن أصطدم به، يفاجئني صوت شبحه القريب:

ـ ادخلْ.. ادخلْ، كنتُ أُدرك أنّك ستأتي، إنّ زياراتك...

قاطعتُهُ، لم أستطعْ منَع نفسي من الصّراخ به:

ـ مجنون.. أبله.. لماذا تحكم على نفسك بالموت بهذه البشاعة؟

كان يقف وسط الصّالون، رافعاً يديه كصليب، ويرتجف برداً. وكان يتمتم: «ما أضيق الباب وأكرب الطّريق الّذي يؤدّي إلى الحياة، وقليلون هم الّذين يجدونه» (متّى ١: ١٤).

هُرعتُ إلى الأبوابِ والنّوافذ، أغلقتُها جميعاً. حاول منعي لكنّه لم يستطع. سحبتُهُ إلى جانب المدفأة عنوةً. أشعلتُها. ثمّ أعددتُ ابريقاً من الشّاي. وما إنْ عدتُ إليه حتّى طلب منّي المغادرة قائلاً:

ـ لقد دنّسْتَ صومعتي، وخرّبت عزلتي.. اخرجْ من هنا.

لكنّني لمْ أخرج، بل رشفتُ الشّاي بهدوء، وجلست بجواره.. أشدُّ بكفّي على زنده. نظر نحوي بعبوس، نظرتُ نحوه بابتسام، ومالبثنا أنْ انفجرنا معاً بالضّحك الصّاخب، دون أنْ يدري أحدنا السّببَ!

حمص (سوريا)

كمال الكتمان

منتصر القفاش

قادرٌ على أن أنقل لكم الأغنية الّتي يردّدها، أن أكشف الكلمات الخطأ الّتي ليست في الأصل، أن أحدّد لكم كم مرّة ردّدها ومتى وأين.

ولا أستطيع أن أعرّفكم لماذا لا يغنّيها ـ ولا يطلقها ـ حينما يكون الوقت وقتها، حينما لا يكون هناك رفيق سواها.

*

تملّى صورته القديمة. واضحة عليها آثار الكلمات، الّتي كُتبت متّخذة الصّورة أرضيّة لها لم يتبيّن سوى كلمة: غداً.

*

كعادته حينما يوقظه التليفون، يشعر ـ برهة ـ برنينه يأتيه من حلم طويل.

كل ما قاله في صوت خفيض: «أيوه».

وظلّت تكرّر وتحدّد أنّها لن تراه أسبوعاً، شهراً، «مش عارفة» ولن تكون في البيت، في أي مكان يعرفه، وأنّها «عملت اللّي عليها»